

التواصل الثقافي بين بني مرين وبني نصر

أ. طويلب عبد الله

أستاذ مؤقت قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة تلمسان

إن البحث في التاريخ الثقافي المشترك بين دولتين، فضلا على أنه ذو فضل في الكشف عن مكوناته الفكرية والعقائدية، فإنه يساعد في إبراز أثر تلك المكونات في خيارات الدولتين وتوجهاتهما، ولاشك في أن الصلات بين المغرب الأقصى والأندلس هي روابط قديمة فرضتها طبيعة الجوار، فقد شكل مضيق جبل طارق وسيلة اتصال بين العدوتين، فقد كان لظهور الدولة المرينية واستقرارها السياسي وقوتها العسكرية الأثر الكبير في تعزيز التواصل خاصة في الفترات التي عرفت فيها الدولة النصرية هجوما شرسا من طرف القشتاليين والأرغونيين جعلها ستنجد بالمرينيين، ومن أجل دراسة هذا الموضوع لا بد لنا من معرفة العوامل المتحركة في هذه العلاقات، حيث نجملها فيما يلي:

1- الجهاد في الأندلس :

كان المرينيون يؤمنون بمسؤوليتهم في الإتحاد مع إخوانهم في الأندلس لمحاربة النصارى، ولذلك لم تكد تمضي سبعة أشهر عن استكمال بني مرين تأسيس دولتهم باستيلائهم على سجلماسة سنة 673هـ/1274م، حتى استجابوا للنداء الذي وجهه لهم السلطان محمد الفقيه ابن الأحمر لمعاونته في صد زحف

النصارى نحو ما تبقى من أملاك المسلمين في الأندلس²، والحقيقة أن بني نصر لم يجدوا أمامهم من القوى الإسلامية غير بني مرين لمعاونتهم، لذلك لم يحرصوا على إيجاد علاقات متينة مع سائر أقاليم البلاد الإسلامية، لانشغال الأمراء المسلمين بتوطيد أركان دولهم وصد الزحف المغولي، فالتجته أنظارهم نحو بني مرين لقربهم الجغرافي منهم، ومن جهة أخرى للمكانة القوية التي كانت تتمتع بها الدولة المرينية بين سائر دول المغرب الإسلامي³.

وقد تبين للمرينيين عند نزولهم إلى الأندلس أن الخلافات الشخصية بين بني نصر وبني أشقيلولة (حكام مالقة ووادي آش وقمارش) ستؤدي إلى إضعاف الجهاد المريني في الأندلس، واتضح ذلك جليا خلال المجلس الذي ضم السلطان أبا يوسف يعقوب المريني والسلطان محمد الفقيه وأبا محمد بن أشقيلولة، وقد أدت هذه الخلافات إلى حدوث وحشة بين السلطان أبي يوسف يعقوب وابن الأحمر، انسحب على إثرها ابن الأحمر عائدا إلى غرناطة⁴، ونتيجة لذلك خاض أبو يوسف يعقوب معركته الأولى في الأندلس معتمدا على قواته التي قدمت معه من المغرب.

خلال العبور الثاني سنة 676هـ/1277م حاول السلطان أبو يوسف يعقوب المريني إعادة العلاقات بينه وبين ابن الأحمر لمهاجمة قرطبة، وقد أسفر هذا التقارب إلى قهر الجيوش النصرانية وتراجعها لتتحصن بمدينة قرطبة وتطلب الصلح مع المسلمين⁵. وليثبت أبو يوسف يعقوب حسن نواياه ترك لابن الأحمر إبرام معاهدة الصلح مع النصارى، بل فعل أكثر من ذلك إذ تنازل عند عودته للمغرب عن جميع غنائم الجيش المريني في معركة قرطبة⁶، لكن شكوك ابن

التواصل الثقافي بين بني مرين وبني نصر

أ. طويلب عبد الله

أستاذ مؤقت قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة تلمسان

إن البحث في التاريخ الثقافي المشترك بين دولتين، فضلا على أنه ذو فضل في الكشف عن مكوناته الفكرية والعقائدية، فإنه يساعد في إبراز أثر تلك المكونات في خيارات الدولتين وتوجهاتهما، ولاشك في أن الصلات بين المغرب الأقصى والأندلس هي روابط قديمة فرضتها طبيعة الجوار، فقد شكل مضيق جبل طارق وسيلة اتصال بين العدوتين، فقد كان لظهور الدولة المرينية واستقرارها السياسي وقوتها العسكرية الأثر الكبير في تعزيز التواصل خاصة في الفترات التي عرفت فيها الدولة النصرية هجوما شرسا من طرف القشتاليين والأرغونيين جعلها تنتجد بالمرينيين، ومن أجل دراسة هذا الموضوع لابد لنا من معرفة العوامل المتحركة في هذه العلاقات، حيث نجملها فيما يلي:

1- الجهاد في الأندلس:

كان المرينيون يؤمنون بمسؤوليتهم في الإتحاد مع إخوانهم في الأندلس لمحاربة النصارى، ولذلك لم تكد تمضي سبعة أشهر عن استكمال بني مرين تأسيس دولتهم باستيلائهم على سجلماسة سنة 673هـ/1274م، حتى استجابوا للنداء الذي وجهه لهم السلطان محمد الفقيه ابن الأحمر لمعاونته في صد زحف

النصارى نحو ما تبقى من أملاك المسلمين في الأندلس²، والحقيقة أن بني نصر لم يجدوا أمامهم من القوى الإسلامية غير بني مرين لمعاونتهم، لذلك لم يحرصوا على إيجاد علاقات متينة مع سائر أقاليم البلاد الإسلامية، لانشغال الأمراء المسلمين بتوطيد أركان دولهم وصد الزحف المغولي، فالتجته أنظارهم نحو بني مرين لقربهم الجغرافي منهم، ومن جهة أخرى للمكانة القوية التي كانت تتمتع بها الدولة المرينية بين سائر دول المغرب الإسلامي³.

وقد تبين للمرينيين عند نزولهم إلى الأندلس أن الخلافات الشخصية بين بني نصر وبني أشقيلولة (حكام مالقة ووادي آش وقمارش) ستؤدي إلى إضعاف الجهاد المريني في الأندلس، واتضح ذلك جليا خلال المجلس الذي ضم السلطان أبا يوسف يعقوب المريني والسلطان محمد الفقيه وأبا محمد بن أشقيلولة، وقد أدت هذه الخلافات إلى حدوث وحشة بين السلطان أبي يوسف يعقوب وابن الأحمر، انسحب على إثرها ابن الأحمر عائدا إلى غرناطة⁴، ونتيجة لذلك خاض أبو يوسف يعقوب معركته الأولى في الأندلس معتمدا على قواته التي قدمت معه من المغرب.

خلال العبور الثاني سنة 676هـ/1277م حاول السلطان أبو يوسف يعقوب المريني إعادة العلاقات بينه وبين ابن الأحمر لمهاجمة قرطبة، وقد أسفر هذا التقارب إلى قهر الجيوش النصرانية وتراجعها لتتحصن بمدينة قرطبة وتطلب الصلح مع المسلمين⁵. وليثبت أبو يوسف يعقوب حسن نواياه ترك لابن الأحمر إبرام معاهدة الصلح مع النصارى، بل فعل أكثر من ذلك إذ تنازل عند عودته للمغرب عن جميع غنائم الجيش المريني في معركة قرطبة⁶، لكن شكوك ابن

الأحمر أقوى من أن تزيلها هذه الأشياء، فما لبث أن توفي أبو محمد عبد الله بن أشقيلولة وتنازل ولده محمد لأبي يوسف عن مالقة والغريبة⁷، حتى أدى ذلك إلى سوء العلاقات بين أبي يوسف وابن الأحمر مرة ثانية، فسعى ابن الأحمر إلى التحالف مع أعداء أبي يوسف في الأندلس والمغرب، فتحالف مع القشتاليين ويغمراسن بن زيان، وأغرى عامل مالقة بالخروج على طاعة أبي يوسف⁸، لكن أبا يوسف نجح في إفشال مخططات ابن الأحمر، بعد أن رأى القشتاليين يتجهون بأساطيلهم نحو الزقاق لمحاصرة المسلمين، فعاون ابن الأحمر الأسطول المريني، فأدى ذلك إلى تحطيم الأسطول القشتالي ودخول المرينيين الجزيرة الخضراء بالقوة⁹.

أسفر التقارب بين ابن الأحمر وأبي يوسف عقب الجواز الثالث إلى الأندلس عن تلاحم قوى المرينيين والنصرين خلال الجواز الرابع لأبي يوسف يعقوب المريني، حيث نجح المرينيون في دحر النصارى خلف نهر الوادي الكبير، كما أسفرت معارك الجواز الرابع عن توقيع صلح بين المسلمين والنصارى أقره كل من سلطان المغرب والأندلس وملك الإسبان¹⁰، ونظرا للتفاهم الكبير بين بني مرين وبني نصر، أسند السلطان ابن الأحمر قيادة الغزاة والمجاهدين المتطوعين من المغرب إلى موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، فكان أول من تولى هذا المنصب من قرابة بني مرين، وقد لعب شيوخ الغزاة من بني مرين دورا في تاريخ العلاقات بين بني مرين وبني نصر¹¹، وكانت غرناطة مقر القيادة العامة لهذه القوات وتتفرع منها عدة قيادات فرعية في مالقة ووادي آش ورندة¹².

بعد وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة 685هـ/1286م، حاول السلطان الجديد لبني مرين يوسف بن يعقوب دفع حركة الجهاد المريني في الأندلس، فاجتمع بالسلطان النصري في مربرة، واتفق الطرفان على أن يحتفظ المرينيون على أجزاء محدودة من الأندلس وهي الجزيرة الخضراء، طريف، رندة، وادي آش وأحوازها¹³، ورأى يوسف بن يعقوب نقل بني أشقيلولة إلى المغرب، فأمر أبا الحسن بن أبي إسحاق بن أشقيلولة بتسليم وادي آش لابن الأحمر وعوضه عنها بعمالة القصر الكبير في المغرب الأقصى له ولبنيه من بعده¹⁴.

ورغم هذه التنازلات الكبيرة للسلطان المريني، فقد استجاب ابن الأحمر لنداءات سانشو ملك قشتالة، وعقد معه تحالفا ضد بني مرين، وأدلى هذا التحالف إلى ضياع طريف وستة من الحصون النصرية، إذ رفض سانشو تسليم طريف لابن الأحمر بعد استيلائه عليها¹⁵.

أدرك محمد الفقيه سلطان غرناطة، خطأ سياسته اتجاه بني مرين فعاد يطلب ودهم، فلم يتردد المرينيون في عقد الصلح معه، واستمرت العلاقات الودية بين الطرفين حتى وفاة السلطان محمد الفقيه سنة 701هـ/1301م¹⁶.

شهدت الفترة التي تلت هذه الأحداث فتورا في العلاقات بين المرينيين وبني نصر، واستمر ذلك حتى اعتلاء أبي الحسن المريني العرش سنة 731هـ/1330م، حيث اقتصر العون المريني على بعض الأموال والخيول في عهد السلطان أبي الربيع¹⁷. بينما توقفت العلاقات بين المرينيين وبني نصر في عهد أبي سعيد عثمان المريني، الذي أصر على تسليم شيخ الغزاة في الأندلس عثمان

بن أبي العلاء التي تسبب في المتاعب لسلطين بني مرين¹⁸.
تغير الموقف المريني في عهد السلطان المريني أبي الحسن، إذ لقيت دعوة بني نصر للمرينيين لتخفيف ضغط النصارى عنهم رغبة قوية في نفس السلطان أبي الحسن في للجهاد في الأندلس، ونتج عن جهود أبي الحسن في الأندلس عن انتصارات ساحقة، فاستولى المسلمون على جبل الفتح سنة 733هـ/1333م¹⁹.
لكن أبا الحسن انهزم في طريف سنة 741هـ/1340م²⁰، وقد صرفت هذه الهزيمة أنظار المرينيين عن القيام بأي عمل عسكري في الأندلس، خاصة أن الأوضاع الداخلية في المغرب لا تساعد على الجهاد.

2- الرحلة :

تعتبر الرحلة جسرا للتواصل مع الآخر، سواء كان هذا الآخر ينتمي إلى الحضارة نفسها، أم إلى حضارة مغايرة. فهي وثيقة تاريخية وأدبية تقوم على السرد والمشاهدة والمعاينة والوصف الدقيق لأحوال المجتمع الذي ارتحل إليه صاحب الرحلة، وأحوال أهله وعلمائه، وتكشف عن طبيعة الوعي الإنساني بالآخر الذي تسعف في تشكيكه الرحلة، فضلا عن كونها فهما لذات الآخر ومعرفته، لأن معرفة هذا الآخر هي جزء من معرفة الذات، التي لا تكتمل إلا بفهم الآخر ومعرفته²¹.

ويزخر التراث الإسلامي بنصوص متعددة في الرحلة، التي سجل فيها أصحابها مشاهداتهم في البلدان التي سافروا إليها، وانطباعاتهم ومواقفهم حولها وحول عادات وتقاليد الشعوب المختلفة. وإذا كانت الرحلة في المجتمعات

الإنسانية، ارتبطت بصفة عامة، بالاكشاف والتنقيب عن عوالم أخرى خارج عالم المرتحل، لما فيها من استكشاف معرفي مباشر لثقافات وعادات وتقاليده مختلفة، فإنها ارتبطت في المجتمعات الإسلامية بمبدأ التعارف الشامل لكل معاني المعرفة والعلم والتواصل، انطلاقاً من قوله تعالى مخاطباً الجماعات والمجتمعات: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"²². فالمرجعية الفكرية والثقافية للرحالة الذي ينتمي إلى حضارة الإسلام تذكره بوحدة الأصل الإنساني، وتدعوه إلى نسج علاقات إنسانية قائمة على قاعدة التعارف، المؤدية إلى التواصل المعرفي والحضاري والإنساني.

فأفراد الحضارة الإسلامية سابقاً شيدوا علاقاتهم مع الحضارات الأخرى على أساس التعارف الذي يتضمن تجاوز الذات من أجل بناء الجسور والتواصل مع الآخرين، سواء انتموا إلى مجال اعتقادي واحد أو انتموا إلى مجال اعتقادي مختلف²³. إن رحلات العلم والحج من أبرز الرحلات التي تتجلى فيها سمات الانفتاح على الآخر، والتعرف عليه، وتبرز الرغبة في الاستفادة منه، وتبادل الخبرات والتجارب معه في مجال حضاري مشترك، تتوحد فيه الأصول. لكن أهم الرحلات الإسلامية التي تبرز الرغبة في التعرف على الآخر، وتكشف عن قيم الاختلاف والمغايرة، بوصفها من أدوات الحوار والتواصل بين الشعوب والثقافات، هي الرحلات التي تعرف بالسفارية.

في إطار الحديث عن الرحلة المغربية، نجد أن أنواعها تتعدد، لكن تجمعها هذه الرغبة في التعارف والتواصل مع الآخر، ساعد على ذلك موقع المغرب

الجغرافي في أقصى الجناح الغربي من العالم العربي والإسلامي. وكانت الرحلة من الكثرة والأهمية حتى اعتبر إثارتها وانتساب الرجل إليها من الثوابت الأساسية التي تقوم عليها ترجمة الرجال في كتب طبقات الغرب الإسلامي. وأقدم رحلة لدينا هي رحلة أبي بكر بن العربي المعافري إلى المشرق التي تمت أواخر القرن الخامس للهجرة، واختلطت فيها الدوافع من طلب العلم وأداء فريضة الحج وقضاء مهمة سفارية تخص دولة المرابطين في المغرب والأندلس آنذاك.

الرحلة فن من فنون الأدب العربي، تخصص وبرع فيها الرحالة المسلمون، وخاصة المغاربة والأندلسيون لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذا العمل، ومن أهمها:

- أداء فريضة الحج

- طلب العلم من المراكز الأخرى في الدول الإسلامية كبغداد والقاهرة ودمشق وتلمسان وفاس وغيرها والتي أصبحت محط أنظار طلبة العلم، من أجل لقاء العلماء والاستفادة منهم²⁴.

هذا النوع من الرحلات شاع في المغرب والمشرق على السواء، ولم تلبث الرحلات أن تأصلت في المغاربة والأندلسيين وأصبحت فنا قائما بذاته، من حيث تدوينه بأسلوب مميز في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة، مع إعطاء لمحة وافية عنها وإعطاء قائمة بأسماء مراحل السفر، وبعد أداء فريضة الحج ينطلقون إلى مراكز العلم المختلفة المنتشرة في البلاد الإسلامية، ومن خلال هذه الرحلات نجد تسجيلات عن الحياة في تلك الأقاليم الإسلامية.

كان الرحالة الأندلسيون يستغلون فرصة أدائهم فريضة الحج، للقاء العلماء والأخذ عنهم وتسجيل أسماء شيوخهم ومروياتهم وأسانيدهم، وما أخذوه عنهم من كتب وإجازات، من هؤلاء الرحالة على سبيل المثال ابن رشيد، فقد حرص ابن رشيد على لقاء العلماء والأخذ عنهم، وقد سجل ذلك بأوضح صورة خاصة فيما يتعلق برواية الحديث، بالإضافة إلى ترجمته للعديد من العلماء في البلدان التي زارها²⁵.

هناك رحالة مغاربة وأندلسيون اعتنوا بالجانب العلمي، وكتبوا برامجهم التي دلت على مكانتهم العلمية مثل ابن جابر الواد آشي، إذ أن برنامج يغلب عليه جمع الأحاديث والرواية ولقاء العلماء²⁶.

تجول ابن جابر الواد آشي في معظم المراكز الإسلامية التي كانت معروفة في ذلك الوقت والتي كانت منارات للإشعاع الثقافي، فأخذ عن علماء الإسكندرية، القاهرة، مكة، المدينة ودمشق، ثم عاد للتدريس بتونس، وقد علا شأنه بما أخذه وجمعه في رحلته، ولم يكتف بذلك بل رحل إلى المغرب والأندلس، حيث بلغ عدد شيوخه مائتين وتسع وسبعين شيخاً²⁷. وتمكن سنة 748هـ/1347م من عقد المجالس العلمية، فجمع فيها بين علماء تونس والمغرب والأندلس والتي حفلت بالمناقشات والمناظرات العلمية.

3- حرية تنقل العلماء بين الدولتين:
إن العلماء والأدباء في المغرب والأندلس لم تكن أمامهم تلك الحواجز السياسية التي تمنع تدفقهم من المغرب إلى الأندلس أو العكس، ولعل الازدهار

العلمي والأدبي الذي عرفته كبريات الحواضر الإسلامية في تلك الفترة وفي مقدمتها فاس وغرناطة وسبتة ومالقة وألمرية، هو راجع إلى ما أولاه سلاطين بني مرين وبني نصر للعلم والأدب من اهتمام، متجليا فيما عقد من مجالس علمية، وما أنفق عل العلماء والطلبة، وفيما شيد من مدارس وما ألحق بها من خزائن الكتب، والأمثلة كثيرة ومتعددة نذكر منها الأديب الشاعر العالم الأندلسي الذي عاش مدة طويلة في البلاط المريني ابن الحاج الغرناطي، الذي بلغ درجة عظيمة في جودة الخط والأدب ورواية الحديث، وقد عمل ضمن كتاب الإنشاء سنة 734هـ/1333م، في عد السلطان أبي الحسن المريني وفي عهد خليفته أبي عنان فارس²⁸، والشاعر أبو القاسم رضوان النجاري، وهو من مالقة، تولى وظيفة الإنشاء بباب السلطان أبي عنان، وألف كثيرا من قصائد الوصف²⁹. ومنهم أيضا الكاتب الأديب محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي، وهو غرناطي الأصل، كان كاتباً للسلطان أبي الحجاج يوسف ثم رحل إلى فاس حيث عاش بها، وكلفه السلطان أبو عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة، فجاءت كتابته لهذه الرحلة نموذجاً فنياً رائعاً لأدب الرحلات في تلك الفترة³⁰.

ومن علماء الأندلس الذين حصلوا علومهم من فاس ونقلوا ما حصلوه من علوم إلى غرناطة، أبو العباس أحمد بن قاسم بن البقال وأبو عبد الله بن البيوت المقرئ، والزاهد أبو الحسن بن أبي المولى وغيرهم، هؤلاء نملوا العلم من فاس على يد نخبة من علمائها³¹.

كانت الزيارات التي يقوم بها سفراء بني الأحمر إلى الدولة المرينية، تمثل صلة

تأثير وتأثر في مجال العلاقات الثقافية والفكرية في كل من المغرب والأندلس، فهؤلاء السفراء كان معظمهم أدباء وعلماء، وكان وجودهم في البلاط المريني فرصة للاحتكاك الثقافي بين العدوتين، فابن الخطيب عندما جاء سفيرا من غرناطة إلى السلطان أبي عنان تبادل الرسائل النثرية والقصائد الشعرية مع زملائه من الأدباء والشعراء المرينيين، ومن ذلك ما دار بينه وبين ابن مرزوق الخطيب الذي بعث إلى ابن الخطيب رسالة من الشعر يقول في مطلعها³²:

يَا قَادِمًا وَافِي كُلِّ نَجَاح * أَبْشِرْ بِمَا تَلْقَاهُ مِنْ أَفْرَاح
هَذِي ذِمَّتِي مَلِكِ الْمُلُوكِ فَلَذِبْهَا * تَحُلِ الْمُنَى وَتَفْرِجْ كُلَّ سَمَاح
فرد عليه ابن الخطيب برسالة هذه بدايتها³³:

مَرَّاحَتُ تَذَكَّرُنِي كُتُوسُ الرَّاحِ * وَالْقُرْبُ يَخْفِضُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحِ
وَسَرَّتْ تَدُلُّ عَلَى الْقَبُولِ كَأَنَّهَا * دَلُّ النَّسِيمِ عَلَى انْبِلَاجِ صَبَاحِ
لقد أفسح حق اللجوء للدولة وحرية التنقل الذي منحه سلاطين بني مرين وسلاطين بني نصر لعلماء الدولتين مجالا كبيرا لازدهار العلاقات الثقافية بين الدولتين، فابن الخطيب الذي أقام في الدولة المرينية، أفاد الحركة العلمية والأدبية في ذلك الوقت، وعلى هذا فكل إنتاجه أثناء فترة لجوئه لدى بني مرين، هو إنتاج مريمي متأثر بالبيئة المرينية الجديدة التي عاش فيها، حيث ابن الخطيب في ربوع الدولة المرينية كمية كبيرة من الشعر والنثر والعديد من المؤلفات³⁴ وهي:

- كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية
- كتاب نفاضة الجراب في علالة الإغتراب
- كتاب معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار
- كتاب الحلل المرقومة في اللمع المنظومة
- كتاب رقم الحلل في نظم الدول
- كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان

وقد لقي ابن مرزوق الخطيب في غرناطة نفس ما لقيه ابن الخطيب في دولة بني مرين، فلجأ إلى سلطان غرناطة الذي قربه إليه، وقلده الخطبة في مسجده سنة 753هـ/1352م، وإلى جانب ذلك أسند إليه مهمة التدريس في المدرسة في حضرته بغرناطة³⁵.

نتيجة للتواصل الثقافي الكبير الذي كان بين الدولتين المرينية والنصرية، وبفضل العوامل التي ذكرناها سابقاً، برزت مجموعة من المظاهر الثقافية والعلمية كانت السمة الأبرز في العلاقات الثقافية بين الدولتين، والتي برهنت على مدى الثراء الفكري والثقافي الذي عرفته كلا الدولتين، ومن هذه المظاهر نذكر:

1- المجالس السلطانية :

كانت مجالس سلاطين بني مرين ندوات علمية رفيعة، وكان دافعهم في عقد هذه المجالس شغفهم الكبير بالعلم، وكانوا من أحسن الملوك سيرة ونباهة وكان فيهم الفقهاء الملازمون لمجالسة العلماء، ولذلك استفحل ملكهم وطالت دولتهم وعظمت صولتهم فكانوا مقرا للعلوم والأخبار ومحل اجتماع دائرة العلم

الذي عليه المدار³⁶.

وقد عقد سلاطين بني مرين مجالس العلم للمناظرة والمحاضرة، ومطارحة الأدباء ومحاوره الشعراء³⁷، وكان الكثير من هؤلاء السلاطين محبا للعلم، ومنهم على سبيل المثال السلطان أبو عنان المريني الذي كان "فقيها يناظر فيه العلماء الجلة وكان عارفا بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من العربية والحساب وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله، فصيح القلم كاتباً بليغاً حسن التوقيع، شاعراً مجيداً"³⁸ ومن نظمه:

إِذَا تَصَدَّمَ لِلرِّيَاسَةِ حَامِلٌ * جَرَّتِ الْأُمُورُ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَعْوَجِ

وقد عرف البلاط المريني في عهد السلطان أبي الحسن، أعظم مجالس العلم التي عرفت في الدولة المرينية، حيث ضم البلاط المريني حشداً من العلماء لا يحصى عدداً، ويكفي للدلالة على كثرتهم أن عدد من استشهد من علماء ذلك البلاط عند رحيل السلطان أبي الحسن من إفريقية - بسبب غرق الأسطول التي كان يقلهم - أربع مائة عالم، ناهيك عن عدد العلماء الذين لم يركبوا، والذين كانوا في مواطن أخرى غير إفريقية في عهد أبي الحسن³⁹.

لا شك أن كثرة المدارس التي أنشأها المرينيون، كان لها أثر كبير في تخرج أجيال كثيرة من العلماء، وإلى جانب هذه المدارس الرسمية التي كانت تشرف عليها الدولة، كانت المساجد عامرة بالعلماء يدرسون العلم، ويقصدهم الناس للشورى أو قراءة القرآن، كما قصد هذه المساجد الصلحاء والأولياء، وقاموا

بدورهم في تقديم الفتوى والعلم للناس على اختلاف مستوياتهم⁴⁰. كان السلطان أبو الحسن المريني من أبر سلاطين بني مرين بالعلماء وكان يحرص أشد الحرص على تتبع أخبار العلماء، حتى إذا سمع عن عالم مشهود له بالرسوخ في العلم، أرسل في استدعائه وضمه إلى خواص مجلسه، وأجرى له الجرايات والنفقات التي تكفيه⁴¹.

من العلماء الذين ضمهم مجلس السلطان أبي الحسن الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي الذي كان إماماً في القراءات⁴²، ابن مرزوق الخطيب الذي كان عالماً في الفقه والحديث⁴³، محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الذي اشتهر بالآبلي الذي كان أعلم أهل زمانه بالعلوم العقلية⁴⁴، والفقيه النحوي أبو عبد الله الرندي، وأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام وأخوه موسى، وأبو عبد الله بن الصباغ المكناسي، وأبو عبد الله بن الحفيد السلوي، وأبو عبد الله بن عبد السلام⁴⁵. كان السلطان أبو الحسن يختار من بين علماء مجلسه من يقرأ بين يديه أمهات الكتب والمؤلفات العربية، خاصة كتب الفقه والحديث، فكان بن مرزوق الخطيب يقرأ بين يديه صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتاب الشفاء، وتهذيب ابن هشام، والحلية للحافظ أبي النعيم الأصفهاني، وجملة من كتب الوعظ والحديث، وكتاب الموطأ والتهذيب لابن الحاجب⁴⁶.

لقد شجع سلاطين بني مرين حركة التأليف والعلماء وأجزلوا لهم العطاء، على مؤلفاتهم واختراعاتهم تشجيعاً لهم على مواصلة العمل، حيث كان العلماء يعرضون على السلاطين إنتاجهم العلمي والأدبي، وكان السلاطين يقدمون

لهؤلاء العلماء جوائز سخية، ومن أمثلة ذلك أن الفقيه أبا عبد الله بن أبي زكريا العزفي أهدى إلى السلطان أبي الحسن كتابا ألفه في ذم الخمر وعيوبها، فاستحسنه السلطان وأمر أن يوضع الكتاب في كفة والدرهم في الكفة الأخرى وأعطى أبو عبد الله العزفي الدرهم⁴⁷، كما أهدى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن السبيل الثعالبي إسطرلابا للسلطان أبي الحسن المريني، فأعطاه السلطان مثل وزنه دنانير من الذهب⁴⁸.

2- الرسائل السلطانية :

إن أهم المراسلات والسفارات الدبلوماسية كانت بين كل من السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه السلطان محمد الخامس الغني بالله من جهة، وبين كل من السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان من جهة أخرى، لم تكن العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الأندلس والمغرب في عمومها، تسير في اتجاه واحد، وإنما كانت متباعدة في طبيعتها عمقا واتساعا، تتأرجح بين الصداقة والعداء، وبين الولاء والتراجع.

يمكن أن نقول إن العلاقات التي سادت بين الأندلس والمغرب في الغالب خلال هذه الفترة، امتازت بالكثافة وغلبة الصفاء، بحكم أواصر الصداقة والحوار اللذين أصلتهما التقاليد السياسية والدبلوماسية العريقة المتوازنة عبر حقبة زمنية متراكمة، ساعدت على تعميقها كثير من العوامل والمؤثرات التاريخية والسياسية والدينية والجغرافية والثقافية بصفة عامة.

اقتصرت العلاقات في عهد السلطان أبي عنان على العلاقات الدبلوماسية التي انحصرت في تبادل الرسائل والسفارات، وقد كتب أغلب هذه الرسائل الكاتب والوزير لسان الدين ابن الخطيب، وقد كان يكتب هذه الرسائل على لسان سلطانه⁴⁹، وألف كتابا سماه كناسة الدكان بعد انتقال السكان ضم فيه أغلب الرسائل، وهي في غالبها رسائل شكر للسلطان المريني أبي عنان على المساعدات التي قدمها لبني الأحمر أو رسائل رافقت هدايا سلطان بني الأحمر لبني مرين⁵⁰، وبعض هذه الرسائل كان للتهنئة بفتح تلمسان وبجاية أو الانتصار على بعض الثائرين ضد أبي عنان⁵¹، وبعضها كان لشرح الأوضاع الداخلية لقشتالة ونشوب الحرب الأهلية فيها بين أبناء الأسرة الحاكمة، أو لتحديد طبيعة العلاقة بين غرناطة ومملكة قشتالة⁵²، ومن هذه الرسائل ما كان للشفاعة لدى أبي عنان للعفو عن بعض الشخصيات المغربية⁵³، وعلى سبيل المثال نذكر الرسالة التي بعثها ابن الأحمر لأبي عنان يطلب فيها العون للأسطول النصري لحماية السواحل الأندلسية، جاء فيها: "قد كانت عادة والدكم -أزلفه الله إليه- وجدد ملابس الرحمة والرضوان عليه- أن يصدر عنه مكتوب بمقدار ذلك الإمداد، وتعيين موضعه من سواحل البلاد ونحن نأمل أن تسلكوا ذلك العمل في سبيل الجهاد"⁵⁴.

كما تبادل البلاطان السفارات، ومن ذلك السفارة التي قام بها لسان الدين ابن الخطيب سنة 755هـ/1354م، سفيراً عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان أبي عنان⁵⁵، وقد نجح ابن الخطيب في هذه السفارة بنجاح باهر، ففي الوقت الذي استقل فيه أبو عنان ابن الخطيب أنشد هذا الأخير أبياتا في مدح أبي عنان:

خَلِيفَةُ اللَّهِ سَاعِدَ الْقَدَمِ * عَلاكَ مَلاحَ فِي الدَجَى قَمَرٍ
وَدَافَعْتَ عَنْكَ كَفَ قَدَمَتِهِ * مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعُهُ الْبَشَرِ
وَجْهَكَ فِي النَّائِبَاتِ بِدَرَجَا * لَنَا وَفِي الْحُلِّ كَفَكَ الْمَطَرِ
اهتز أبو عنان لهذه الأبيات وما كان منه إلا أن أعلن استجابته لكل
المطالب، وقال له قبل أن يجلس: "ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم"⁵⁶، وكان في
مقدمة هذه المطالب العون الحربي لمواجهة أطماع القشتاليين⁵⁷، ومن السفراء
الذين وفدوا إلى البلاط المريني في عهد أبي عنان الشيخ الخليلي وقد دارت بينه
وبين السلطان أبي عنان محاورة لطيفة ذكرها صاحب نفح الطيب⁵⁸، ومن
السفراء المغاربة الذين قاموا بالسفارة إلى بلاط بني الأحمر الشيخ محمد بن محمد
بن أبي بكر القرشي المقرئ، الذي أرسله أبو عنان في سفارة إلى غرناطة سنة
757هـ/1357م⁵⁹.

بعد وفاة أبي عنان قويت العلاقات بين المرينيين وبني نصر، خاصة في عهد
السلطان أبي سالم المريني، الذي أعطى السلطان النصري الغني بالله ووزيره لسان
الدين ابن الخطيب حق اللجوء السياسي في الدولة المرينية، هذا بعد أن تعرض
سلطان غرناطة لانقلاب أطاح به سنة 760هـ/1358م⁶⁰.

الهوامش

- ¹ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المطبعة المصرية، بولاق 1284هـ، ص 189. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972، ص 312.
- ² الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 3، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955، ص 37. عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مج 7، مطابع فضالة، المحمدية 1986، ص 72.
- ³ محمد عيسى الحريري، المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط 2، دار القلم، الكويت 1987، ص 227.
- ⁴ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج 1، دار المعارف، القاهرة 1956، ص 565. ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة 1347هـ، ص 44.
- ⁵ الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 40.
- ⁶ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 565. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 196.
- ⁷ ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 197. الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 40.
- ⁸ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 566.
- ⁹ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 4، ط 3، دار الثقافة، بيروت 1983، ص 416. ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، ط 2، دار المكشوف، بيروت 1956، ص 151. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، مج 7، ص 73.
- ¹⁰ ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص 45.
- ¹¹ الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 42.
- ¹² ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 316-318. المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 1، دار صادر، بيروت 1988، ص 452.

- 13 أحمد مختار العبادي، فترة مضطربة في تاريخ غرناطة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج7-8، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1959-1960، ص48.
- 14 ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص42. ابن خلدون، العبر، ج7، ص210.
- 15 ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص565.
- 16 الناصري، المصدر السابق، ج3، ص46، محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص230.
- 17 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص387. ابن خلدون، العبر، ج7، ص216.
- 18 ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص228.
- 19 ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص53.
- 20 عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1996، ص72.
- 21 الآية رقم 12 من سورة الحجرات.
- 22 عواطف محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص75.
- 23 نفسه، ص79.
- 24 صالح محمد فياض، التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية، ع2، السنة 12، مجلة الدارة، 1987، ص98.
- 25 ابن رشيد السبتي، ملء العيبة بما جمع بطوال الغيبة في الوجهة الوجهية إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص6.
- 26 عواطف محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص76.
- 27 محمد الشريف، من مظاهر التواصل الحضاري بين المغرب المريني وغرناطة النصرية، ندوة مثلث الأندلس، قصبة الأوداية، الرباط أكتوبر 2003، ص96.
- 28 المقرئ، نفح الطيب، ج7، ص108. ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية، ص109.
- 29 المقرئ، نفح الطيب، ج6، ص106.
- 30 المقرئ، نفح الطيب، ج2، ص170.
- 31 ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص287-288.

- 32 الناصري، المصدر السابق، ج3، ص94.
- 33 الناصري، المصدر نفسه، ج3، ص95.
- 34 محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص237.
- 35 ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، ص120.
- 36 محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، ج3، مطبعة حجر، فاس 1316 هـ، ص168.
- 37 محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص338.
- 38 الكتاني، المصدر السابق، ج3، ص225.
- 39 محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص337.
- 40 الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط 1991، ص83.
- 41 ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس، تقديم محمود بوعيايد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص141.
- 42 نفسه، ص141.
- 43 الكتاني، المصدر السابق، ج3، ص177.
- 44 ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص334.
- 45 الكتاني، المصدر السابق، ج3، ص374. ابن مریم، المصدر السابق، ص215.
- 46 ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص43.
- 47 ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص.ص150-156.
- 48 محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص339.
- 49 المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص.ص506-512. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، مج7، ص90.
- 50 ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003، ص.ص57-75.

- 51 ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص 65.
- 52 ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص 94.
- 53 من أمثلة ذلك شفاعة السلطان أبي الحجاج يوسف الأول في الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق والشيخ محمد بن أبي بكر القرشي المقرئ، قاضي الجماعة بفاس. المقرئ، نفح الطيب، ج 5، ص 209.
- 54 ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص 98.
- 55 الناصري، المصدر السابق، ج 3، ص 94-98. المقرئ، نفح الطيب، ج 5، ص 209. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 19.
- 56 الناصري، المصدر نفسه، ج 3، ص 94.
- 57 محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 233.
- 58 المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 681.
- 59 ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص 153. المقرئ، نفح الطيب، ج 5، ص 208.
- 60 ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص 108.